غرام إدوارد الثالث

بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي

يتحدث الناس اليوم عن غرام دوق وندسور (الملك إدوارد الثامن) بسيدة كانت متزوجة يوم أحبها ، وعما انتهى إليه ذلك الحب من طلاق السيدة زوجها ، ونزول الملك عن عرشه للاقتران بها . وهنا قصة ملك آخر من ملوك الانجليز هو إدوارد الثالث الذى أحب كذلك سيدة متزوجة ، وقد انتهى أمد غرامه على ما يرى فى هذه التمثيلية الشعرية التى وضعها بعضهم ، وقد نسبت إلى شاعر الانجليز الأكبر شاكسبير

وتلخص القصة فى أن الحرب كانت قائمة بين إدوارد الثالث وبين الأسكتلانديين ، وقد حاصر الاسكتلانديون حصن روكسبرج وأسروا حاكمه لورد سالسبرى ، وقامت زوجه لادى سالسبرى بالدفاع عن الحصن دفاع الأبطال ، حتى إذا اقترب الملك إدوارد من الحصن تخلى عنه المحاصرون وتراجموا هاربين أمام جيوش الملك

وفتحت لادى سالسبرى أبواب الحصن أمام الملك الذى أصبح هو وحاشيته ضيوفها ؛ وما كاد الملك يرى ربة القصر حتى أحس بحبها يهاجم قلبه وشعر بحرج موقفه ، وفاجأته اللادى واقفاً إلى نافذة الردهة شارد الفكر فجرى بينهما هذا الحوار :

الكونتس — يؤلمنى أن أرى مظاهر الحزن بادية على مولاى الملك ؛ فماذا فى مقدور عبدتك أن تفعل لتزيل عن نفسك أسباب الأسى العابس والكآبة المطبقة ؟

إدوارد — عفواً ياسيدتى ، إنى لشارد اللب ؛ وما أستطيع أن أنثر أزهار العزاء على أرض من الفضيحة والعار ؛ فانى قد أخطأت يا كونتس ، منذ دخلت هذا المكان

الكونتس — حاشا ، يامولاى ، أن يكون بين أهل هذه الدار من يستطيع أن يرى مليكى مخطئاً ؛

أطلعنى يا مولاى الكريم على أسباب امتعاضك

إدوارد — وماذا يكون مبلغ قربى من الشفاء إذا أنا أطلعتك على ما تطلبين ؟

الكونتس — يكون ذلك على قدر ما تستطيع جميع قواى النسوية أن تبذل فى مشترى الدواء .

إدوارد — إذا كنت تقولين حقاً فى ذلك كل أسباب الرضا ؛ فاستخدمى جميع قواك فى تحقيق أسباب سعادتى ، وعندئذ أسعد يا كونتس أو أموت

الكونتس — سأفعل ، يامولاى ، ما تريد

إدوارد — أقسمى على ذلك يا كونتس

الكونتس — أقسم بالسماء أنى سأفعل

إدوارد — إذن انتحى جانباً غير بعيد

واذكرى أن هنا ملكا مغرماً بك

واذكرى أن فى مقدورك أن تسعديه ، وأنك

قد أقسمت على أن تبذلى فى سبيل إسعاده كل ما تستطيع قوتك تحقيقه من أسباب العزاء

افعلى ذلك كله ثم خبرينى متى تتحقق سعادتى

الكونتس — لقد فعلت ذلك كله ، يا مولاى الملك المهيب

ولقد قدمت لك من مظاهر الطاعة والاخلاص كل ما فى مقدورى من قوة الحب التى أستطيع أن أحيطك بها

فقل لى ، يامولاى ، أى برهان غير ذلك تريد ؟

إدوارد — لقد سمعتنى أقول إننى مغرم بك

الكونتس — لئن كنت مغرماً بجمالى فخذه إن استطعت ، فهو على تفاهته لا يساوى فى نظرى عشر قيمته ؛ ولئن كنت مغرما بفضيلتى فخذها إن استطعت فنبع الفضيلة يغنى بمقدار ما ينفق منه

وليكن غرامك يا مولاى بأى مما أستطيع أن أعطى وما تستطيع أن تأخذ ، فلتربه عنى

إدوارد — إن جمالك هو الذى أريد أن أنعم به

الكونتس — وددت يا مولاى لو كان جمالى دهاناً ؛ إذن لمحوته فخرمت منه نفسى وقدمته اليك

ولكنه ، يا مولاى الملك ، ملتصق بحياتى ملازم لها

فاذا أنت أخذت أحدهما أخذت الثانى معه ، فجمالى كالخيال المتواضع يتبع ضوء الشمس المشرقة فى صيف حياتى

ادوارد — ولكنك تستطيعين أن تعيرينى إياه فانعم به

الكونتس — ليس أسهل من أن أعير روحى بعيداً عن جسمى — والجسم فى قيد الحياة — إلا أن أعير جسمى — وهو مأوى روحى — بعيدة عنها ، بينما أنا محتفظة بها

إن جسمى هو مخدع روحى ، وساحتها ، ومعبدها ؛ وروحى ملاك ، نقى طاهر ، سماوى ، غير مدنس

فاذا أعرتك بيت هذا الملاك يا مولاى قتلت روحى المسكينة ، وقتلتنى روحى المعذبة

* * *

وطلب الملك من الأرل وارويك ، والد الكونتس أوف سالسبرى — بحكم يمين الطاعة التى أقسمها له — أن يذهب إلى ابنته فيأمرها باطاعة رغبات الملك . وتظاهر الأرل بالطاعة ، وكان موقفه غاية فى الحرج . وفى الحوار الآتى بينه وبين ابنته يبدو مبلغ ذلك الحرج ، كما تبدو لباقة الأرل فى أداء واجب الطاعة لليمين التى أقسمها ، وواجب الشرف والحرص على كرامة ابنته

وارويك — كيف أستطيع أداء هذه المهمة القاسية ؟ يجب ألا أناديها بابنتى ؛ إذ أين هو الأب الذى يقبل فى مثل هذا الظرف التمس أن يحرض ابنته على الزنا ؟

إذن سأناديها بامرأة سالسبرى ... فهل أتكلم ؟

لا ... إن سالسبرى صديق ؛ وأين هو الصديق الذى يؤذى الصداقة بمثل هذه المثلبة ؟

إذن لا أناديها ابنتى ولا أناديها امرأة صديق .

لا ، فما أنا وارويك كما تتوهمين

إن أنا إلا محام قادم من محكمة الجحيم

لبست روحه جسم وارويك

لأحمل إليك رسالة من الملك .

فملك انجلترا العظيم مغرم بك أيتها السيدة ، والرجل الذى يستطيع أن يسلبك حياتك

إن أراد، يستطيع كذلك أن يسلبك شرفك ...
فأطيعيه وأعيريه شرفك لتنقذى حياتك
فكثيراً مايضيع الشرف ثم يسترد،
ولكن الحياة إذا ضاعت فانها لن تعود؛
والشمس التى تجفف الحشائش تنعش الأعشاب؛
والملك الذى يدنسك قادر على أن يرفع مكانتك.

ويقول الشعراء إن رمح أشيل العظيم كان يشفى الجروح التى يحدثها ... ومغزى ذلك أن الرجل القوى يستطيع أن يصلح ما أفسد

والأسد قادر على تنظيف فكيه الداميتين، وعلى ستر قسوته بمظاهر الوداعة

بينما فريسته الهالمة ترتعد عند قدميه

والملك مستطيع — فى عظمته — أن يستر عارك

وهؤلاء الذين يجرؤون على النظر ناحيته باحثين عنك إنما يفقدون نعمة البصر بالنظر إلى قرص الشمس

وما مبلغ الضرر الذى يمكن أن تحدثه نقطة من السم فى المحيط الهائل؟

وعظمة المحيط كفيلة بتطهير كل ما يلقى فيه من المفاسد، وبتجريدها من قوة الأذى ...

واسم الملك العظيم يبرر سوء عملك

ويكسو جرعة الندم المرة غلافا من السكر حلو المذاق.

واذكرى إلى ذلك أن لا ضرر فى أن تفعلى مالا يمكن أن تصونيه فى مأمن من العار

وهأنذا بأمر مليكى قد أبرزت الرذيلة فى ثوب الفضيلة.

وإنى لمنتظر جوابك فى قضية مولاى

الكونتس — حصار غير طبيعى ... إذن ما أشد تعسى .. أأنجو من خطر الأعداء لأنغمر من أصدقائى فى خطر أشد منه فظاعة وقسوة؟ أليست لدى الملك من وسيلة أخرى يدنس بها دمى الشريف غير إفساد باعث هذا الدم فى عروق وحمله على أن يكون محاميه الشرير ورسوله المفضوح... فلا عجب إذا فسدت الفروع، بعد أن دب الفساد فى الجذوع. ولا عجب أن يموت الطفل المجذوم إذا تلوثت حلمة الضرع وقد جف معينه. إذن اتركوا الاثم حبله على الغارب، وسلموا الشباب الطائش زمام الحرية المطلقة، وأزيلوا القوانين الشديدة المانعة، وامحوا جميع القواعد التى تجزى على العار بالعار وتقابل الجريمة بالعقاب. لا، بل دعونى أمت إذا كانت إرادة الملك الغاضبة تأبى إلا ما يريد. فلأمت قبل أن أطيع إرادته، وأمثل الدور الذى يريد أن أمثله فى ملهاة شهوته الفاضحة

واروبك — أراك تتكلمين كما أردتك أن تتكلمى. فاصغى إلى فما أنا بعيد ما أسمعتك من قبل، فان قبراً شريفاً أجل مكانة من مخدع الملك المدنس. وكلما عظمت مكانة الرجل عظمت قيمة عمله كريماً كان ذلك العمل أو شائناً. والذرة الحقيرة التى تتطاير فى شعاع الشمس تبدو للعين فى أضعاف قيمتها الحقيقية. وأشد أيام الصيف صفاء لا يلبث أن يلوث الجثة الهامدة التى يبدو كأنه يقبلها. وعميقة هى الضربات التى تحدثها الفأس القوية، والجريمة التى ترتكب فى المكان المقدس بتضاعف أثمها عشرات المرات. والعمل الشرير الذى يرتكب بحكم القوة إثم مزدوج مقرون بالتحريض: والقرد الذى يكسى بالملابس الجميلة البراقة الألوان يصبح منظره

أدعى ألى الزراية والاحتقار . إنى أستطيع يا ابنتى أن أطيل الكلام فى وصف عظمة الملك وجسامة العار الذى يلحقك من ورائها ؛ ولا تزيد الكأس الذهبية منظر السم إلا بشاعة . وتبدو الليلة الظلماء أشد ظلاماً إذا تخللتها البروق . والزنبقة الفاسدة أخبث ريحاً من العشب العطن . وكل مجد ينحدر إلى الأثم يتضاعف العار الذى ينشأ عنه . وإنى لأتركك الآن وقد أودعت نفسك دعواتى التى ستنقلب لعنة قاسية أشد القسوة إذا أنت لوثت اسمك الذهبى الشريف بلوثة العار المموه بمظاهر العظمة والمجد (ينصرف)

الكونتس — سأتبعك ، وإذا ما استدار عقلى هـذه الناحية فيغمر جسمى روحى فى هم غير محدود النهاية

* * *

وفى أثناء ثورة عواطف إدوارد يصل ابنه البرنس أوف ويلز إلى قصر روكسبرج فتثور فى رأس الملك معركة شديدة يبدو أثرها فى حوار بينه وبين الأمير يذكر فيه واجباته الزوجية ، فيتردد بين الحرص عليها وبين الاندفاع وراء شهوته الفاجئة اللاحة ؛ وبينما هو فى هـذا الحوار يتقدم اللورد فيعلن قدوم اللادى سالسبرى ، فيأمر الملك ابنه بالانصراف والتسلى مع أصحابه ، وتدخل لادى سالسبرى فيجرى بين الملك و بينها هذا الحوار

* * *

الملك — الآن جئت يا صديقة روحى
لتزيدينى من كلماتك القدسية
فى معارضة حبى جمالك الفتان !
الكونتس — لقد أمرنى أبى ، وهو يباركنى ..
الملك — أن تخضعى لارادتى
الكونتس — إنما ذلك حقك يا مولاى
الملك — على أن هذا يا أحب الناس إلىّ ليس
إلا مقابلة حق بحق ومبادلة حب بحب
الكونتس — بل مبادلة الخطيئة بالخطيئة ، والعداوة بالعداوة
ولكنى إذ أرى جلالتك ميالاً لهذا الأمر فلا عمانعتى ، ولا حبى زوجى ، ولا مكانتك السامية ، ولا الاحترام الواجبة رعايته ، ولا شىء من ذلك بقادر على أن ينقذنى . وإذا لم يكن بد من أن تتغلب قوتك وتطغى على كل هذه الاعتبارات فانى أستبدل الرضا بالتمنع .
وسأرغم نفسى على عمل ما لم أكن لأعمله .
إنما أشترط يا مولاى أن تمحو تلك الموانع التى تحول بين حب جلالتك وحبى
الملك — أذكرى هذه الموانع يا حياتى ، وإنى لأقسم بالسماء على أن أزيلها
الكونتس — إنها حياتهما هى التى تقف بين حبينا
وإنى لأغص إذ أقول ذلك يا مليكى
الملك — حياة من يا سيدتى ؟
الكونتس — فليعلم مولاى الملك الحبيب أنها حياة ملكته ، وسالسبرى زوجى الشرعى ، فهو بصفته هذه سيحول دون حبنا مادام حياً ، ولن نستطيع أن ننعم إلا بموتهما
الملك — إن ما تطلبين فوق طاقة قوانيننا
الكونتس — وكذلك شأن رغباتك ، فاذا كان القانون يستطيع أن يمنعك من تنفيذ أحد الأمرين ، فليمنعك كذلك من محاولة الآمر الآخر

وما أستطيع أن أصدق أنك تحبنى كما تصف
إلا إذا أنت وفيت باليمين التى أقسمت
ادوارد — كفى . . فليمت زوجك والملكة
فأنك لا روع جمالاً مما كانت هيرو
ولم يكن بيروليس ليتدر بأقوى منى
وقد خاض مجرى الماء سعياً إلى حبيبته .
أما أنا فسأخوض جحيما من الدماء لأصل إلى
هيكل معبودتى

الكونتس — وإنك لتفعل أكثر من ذلك ،
فستصبغ ماء النهر بدم قلبهما الذى يشطر حبنا
ويفصل بيننا . ونصيبا زوجى وزوجك من هذا
الدم متساويان

ادوارد — إن جمالك يحملهما جريمة موتهما
ويقدم الدليل الذى يقضى بأن يموتا
وأنا باسم هذا الدليل وبصفتى قاضيهما سأدينهما

الكونتس — يالله من الجمال المزيف ! ومن
القاضى الفاسد الضمير !
وعند ماتعقد محكمة السماء العالية فوق رؤوسنا
اجتماعها العام وتبدأ حساب الناس ، ومحاسبتنا
على هذا الشر المجسم هل نستطيع إلا أن نرتجف
كلانا من هول الجريمة ؟

ادوارد — ماذا تقول حبيبتى ؟ هل هى مصممة ؟

الكونتس — مصممة على أن أتحالل من
قيودى ، وإذن إليك هذا :
أنجز وعدك أيها الملك العظيم أصبح لك .
قف حيث أنت وسأبتعد عنك قليلاً
ثم ترى كيف أسلم نفسى بين يديك
(تلتفت إليه فجأة كاشفة عن سكينين)
ها على جنبى تتدلى سكينا زواجى
خذ إحداهما فاقتل بها مليكتك
وتعلم منى أين هى راقدة ،
فسأقتل بالأخرى حبيبى الذى ينام نوماً عميقاً
فى سويداء قلبى ؟
فاذا ذهبنا جميعاً فسأوضح لارادتك غرامك .
لا تحاول أيها الملك الداعر أن تمنعنى
فان عزمى أسرع فى حركته من محاولتك
انقاذى
فاذا تحركت فسأضرب ، فقف مكانك ،
واستمع لما أخبرك به
فأما أن تقسم على العدول عن رغبتك الشريرة
فلا تعود أبداً إلى محادثتى فيها وإلا أقسمت
بالسماء (تركع) أن تلطخ هذه السكين الماضية
هذه الأرض بما أردت أن تلوث من دم صدرى
المسكين . أقسم يا ادورد أقسم !
وإلا فسأضرب هنا وأموت تحت قدميك

إدوارد — إنى لأقسم بالقوة التى تزودنى الآن
بروح الخجل من نفسى ألا أفتح شفتى بعد
الآن بكلمة تشير إلى هذا الأمر الشرير .
انهضى أيتها السيدة الانجليزية صدقا التى
ستفخر بها جزيرتنا أبداً بخير مما يستطيع أى
رومانى أن يفخر بتلك التى أجهد كنزها المنبوش
أقلام الكثيرين عبثاً فى محاولة وصفها .
انهضى ولتكن خطيئتى عماد سمعتك الشريفة
التى ستغنين بها على مر الأجيال
انهضى فلقد أفقت من ذلك الحلم المكروه !

عبد الحميد حمدى